

بالتزامن مع الاحتفاء بمئوية الشاعر الكبير أبي القاسم الشابي تقدم «غيمان» في هذا الباب نماذج من شعره ونثره، لافتة الانتباه إلى أن هذا الشاعر الذي مات في ريعان الشباب ولم يقل كلمته الإبداعية كاملة يعد واحدا من رموز التحديث الشعري في الوطن العربي.

مختارات من شعر الشابي ومذكراته ونثره

الشابي

وتَفَزَّلْتُ بالربيع وبالفجر

فماذا ستفعل الريح بعدي؟

(١) شعر

قال قلبي للإله

في جبال الهموم أنبت أغصاني
فرقت بين الصخور بجهد
وتغشاني الضباب، فأورقت
وأزهرت للعواصف وحدي
وتمايلت في الظلام وعطرت
فضاء الأسى بأنفاس وردي
وبمجد الحياة والشوق غنيت،
فلم تفهم الأعاصير قصدي
ورمت للوهاد أفناني الخضر
وظللت في الثلج تحفر لحدي
ومضت بالشذى فقلت: ستبني
في مروج السماء بالعطر مجدي

صلوات في هيكل الحب

عذبة أنت كالطفولة، كالأحلام
كاللحن، كالصباح الجديد
كالسما الضحوك، كالليلة القمر،
كالورد، كابتسام الوليد
يا لها من وداعة وجمال
وشباب منعم أملود!
يا لها من طهارة تبعث التقديس
في مهجة الشقي العنيد!
يا لها رقة يكاد يرف
الورد منها في الصخرة الجلمود!
أي شيء تراك؟ هل أنت فينوس
تهادت بين الوري من جديد

للربيع الذي يوجج في الدنيا حياة الهوى وروح الحنين
ويوشى الوجود بالسحر والأحلام والزهر والشذى واللحن
للحياة التي تغني حوائلي على السهل والربى والحزون
للينابيع، للعصافير، للظل، لهذا الثرى، لتلك الغصون
للتسيم الذي يضمخ أحلامي بعطر الأقاح والليمون
للجمال الذي يفيض على الدنيا، لأشواق قلبي المشحون
للزمان الذي يوشح أيامي بضوء المني وظل الشجون
للشباب السكران، للأمل المعبود، لليأس، للأسى، للمنون.



فتهدت، ثم قلت: وقلبي! من يغنيه؟ من يبدي شجوني؟
قالت: الحب، ثم غنت لقلبي قبلاً عبقرية التلحين
قبلاً علمت فؤادي الأغاني، وأنارت له ظلام السنين
قبلاً ترقص السعادة والحب على لحنها العميق الرصين.



وأقننا، فقلت كالحالم المسحور: قلبي! تكلمي! أخبريني!
أي دنيا مسحورة، أي رؤيا طالعني في ضوء هذي العيون!
زمر من ملائك الملائ الأعلى يغنون في حنو حنون
وصبايا رواقص يتراشقن بزهر التفاح والياسمين
في فضاء مورد حالم ساه أطافت به عذارى الفنون.

صوت من السماء

في الليل ناديت الكواكب ساخطاً متأجج الآلام والآراب:
الحقل يملكه جبابرة الدجى والروض يسكنه بنو الأرياب
والنهر للغول المقدسة التي لا ترتوي، والغاب للحطاب
وعرائس الغاب الجميل هزيلة ظمأى لكل جنى وكل شراب
ما هذه الدنيا الكريهة؟! ويلها! حقت عليها لعنة الأحقاب!
الكون مُصغ، ياكواكب، خاشع طال انتظاري، فانطقي بجواب!



فسمعت صوتاً ساحراً متموجاً فوق المروج الفيح والأعشاب

لتعيد الشباب والفرح المعسول
للعالم التعيس العميد!
أم ملاك الفردوس جاء إلى الأرض
ليحيي روح السلام العهيد!
أنت.. ما أنت؟! أنت رسم جميل
عبقري من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وعمق
وجمال مقدس معبود
أنت ما أنت؟! أنت فجر من السحر
تجلى لقلبي المعمود
فأراه الحياة في موق الحسن
وجللى له خفايا الخلود
أنت روح الربيع، تختال في الدنيا
فتهتز رائعات الورود.

تحت الغصون

ههنا في خمائل الغاب تحت الزان والسنديان والزيتون
أنت أشهى من الحياة وأبهى من جمال الطبيعة الميمون
ما أرق الشباب في جسمك الغض وفي جيدك البديع الثمين!
وأدق الجمال في طرفك الساهي، وفي ثغرك الجميل الحزين!

وألذ الحياة حين تغنين فأصغي لصوتك المحزون!
وأرى روحك الجميلة عطراً ضايحاً في حلاوة التلحين!
قد تغنيت منذ حين بصوت ناعم، حالم، شجي، حنون
نغماً كالحياة عذبا عميقاً في حنان، ورقة، وحنين
فاذا الكون قطعة من نشيد علوي، منغم، موزون
فلمن كنت تشدين؟ فقالت: للضياء البنفسجي الحزين
للضباب المورّد المتلاشي كخيالات حالم مفتون
للمساء المثل، للشفق الساجي، لسحر الأسى، وسحر السكون
للعبير الذي يرفرف في الأفق ويفنى، مثل المني، في سكون
للاغانى التي يرددها الراعي بمزمارة الصغير الأمين

وحفيفاً أجنحة ترفرف في الفضاء وصدى يرُن على سكون الغاب:
الفجرُ يولدُ بأَسْمَا مُتَهَلِّلاً في الكونِ بين دُجْنَةٍ وضباب.

● ١٩٣٣/٣/٧

ماتم الحب

ليت شعري!

أَيُّ طَيْرٍ

يسمع الأحزان تبكي

بين أعماق القلوب

ثم لا يهتف في الفجر

برنات النحيب

بخشوع واكتئاب؟

❖ ❖ ❖

فأعيش في غابي حياة كلها للفن، للأحلام، للإلهام
لكنني لا أستطيع، فإن لي أمماً يصدُّ حنائها أوهامي
وصغار إخوان يرون سلامهم في الكائنات معلقاً بسلامي
فقدوا الأب الحاني فكنتُ لفنهم كهفاً يصدُّ غوائل الأيام
ويقيهم وهَجَ الحياة ولفحها ويذود عنهم شرَّة الآلام
فأنا المكبُّلُ في سلاسلِ حَيَّةٍ ضَحَّيْتُ من رأفي بها أحلامي
وأنا الذي سكنَ المدينة مُكْرَهاً ومشى إلى الآتي بقلب دام
يصغي إلى الدنيا السخيفة راغماً ويعيش مثل الناس بالأوهام
وأنا الذي يحيا بأرض قفرةٍ مدحوةٍ للشك والآلام...

هجمتُ بي الدنيا على أهوالها وخضمتها الرعب العميق الطامي

من غير إنذار، فأحمل عُدتِي وأخوضه كالسباح العوام
فتحطمتُ نفسي على شطآنه وتأججت في جوه آلامي.

❖ ❖ ❖

الويل في الدنيا التي في شرعها فأس الطغام كريشة الرسام!

● ١٩٣١/٦/٢٣

يا ابن أُمي

خُلقت طليقاً كطيف النسيم وحرّاً كنور الضحى في سماء
تغرّد كالطير أين اندفعت تشدو بما شاء وحيّ الإله
وتمرحُ بين ورود الصباح وتتعلم بالنور، أنى تراه
وتمشي - كما شئت - بين المروج، وتقطف ورد الربى في رباه

❖ ❖ ❖

كذا صاغك الله يا ابن الوجود وألقتك في الكون هذي الحياة
فما لك ترضى بذل القيود وتحني لمن كبّلك الجباه
وتسكت في النفس صوت الحياة القوي إذا ما تغنى صداه

لست أدري

أَيُّ أَمْرٍ

أخرس العصفور عني،

أترى مات الشعورُ

في جميع الكون، حتى

في حشاشات الطيور؟!

أم بكى خلف السحاب؟!

قيود الأحلام

وأودُّ أن أحييا بفكرة شاعر فأرى الوجود يضيّق عن أحلامي
إلا إذا قطعت أسبابي مع الدنيا وعشت لوحدي وظلامي
في الغاب، في الجبل البعيد عن الوري حيث الطبيعة والجمال السامي
وأعيش عيشة زاهد مُتَسَكِّكٍ ما إن تُدنسه الحياة بدام
هَجَرَ الجماعة للجبال تورعاً عنها وعن بطش الحياة الدامي
تمشي حوالبه الحياة كأنها الحلم الجميل، خفيفة الأقدام
وتخرُ أمواج الزمان بهيبةٍ قدسية، في يَمِّها المترامي

أغنية الأحران

غَنَّنِي أَنْشُودَةَ الْفَجْرِ الصَّحُوكُ
أَيُّهَا الصِّدَّاحُ!
فَلَقَدْ جَرَّعَنِي صَوْتُ الظَّلامِ
أَلَمَّا عَلَّمَنِي كَرَهَ الْحَيَاةِ
إِنْ قَلْبِي مَلَّ أَصْدَاءَ النُّوحِ
غَنَّنِي، يَا صَاخُ!



أغنية الشاعر

حَطَّمْتُ كَفُّ الْأَسَى قِيَّارَتِي
فِي يَدِ الْأَحْلَامِ
فَقَضْتُ -صَمْتًا- أَنْاشِيدَ الْغَرَامِ
بَيْنَ أَزْهَارِ الْخَرِيفِ الذَّائِبَةِ
وَتَلَاشْتُ فِي سَكُونِ الْاِكْتِتَابِ
كَصَدَى الْغَرِيدِ.

(٢) نثر

من الخيال الشعري عند العرب

- إن الخيال ينقسم في نظري إلى قسمين: قسم اتخذته الإنسان لا للتزويق والتزويق ولكن ليتفهم من ورائه سرائر النفس وخفايا الوجود، وهو هذا الخيال الذي نلمح من خلفه ملامح الفلسفة وأسرة الفكر، ونسمع من ورائه هدير الحياة الكبرى يدوي بكل عنف وشدة، وهو هذا الفن الذي تندمج فيه الفلسفة بالشعر، ويزدوج فيه الفكر بالخيال. وقسم اتخذته الإنسان أولاً ليعبر به عن ذات نفسه حين لا يجد لها مساعداً في الحقيقة العارية، ثم

وتطبق أجفانك النيرتات عن الفجر، والفجر عذبٌ ضياه وتقعن بالعيش بين الكهوف!؟ فأين النشيد؟ وأين الإياه؟ أتخشى نشيد السماء الجميل؟ أترهب نور الفضا في ضحاه؟ ألا انهض وسر في سبيل الحياة! فمن نام لم تتظره الحياة ولا تحش مما وراء التلاع! فما ثم إلا الضحى في صباه وإلا ربيع الوجود الغرير يطرر بالورد ضافي رداه وإلا أريج الزهور الصباح، ورقص الأشعة بين المياه وإلا حمام المروج الأنيق يغرد منطلقاً في غناه إلى النور! فالنور عذب جميل إلى النور! فالنور ظل الإله.

● ١٩٢٩/٢/١٩

يا ربة الشعر والأحلام غنني فقد سممت وجوم الكون من حين إن الليالي اللواتي ضممت كبدي بالسحرا أضحت مع الأيام ترميني ناخت بنفسي ماسيها وما وجدت قلباً عطوفاً يسليها، فغزني! وهد من خلدي نوح ترجعه بلوى الحياة وأحزان المساكين على الحياة أنا أبكي لشقوتها فمن إذا مت بيكيها وبيكييني؟ يارية الشعر غنني فقد ضجرت نفسي من الناس أبناء الشياطين تبرمت ببني الدنيا، وأعوذها في معزف الدهر غريد الأرائين وراحة الليل ملأى من مدامعه وغادة الحب تكلني لا تغنيني فهل إذا لذت بالظلماء منتحباً سلو؟ وما نفع محزون لمحزون!؟ يا ربة الشعر! إنني بانس تعس عدمت ما أرتجي في العالم اللون وفي يديك مزامير يخالجها وحي السماء فهاتيها وغنيني ورتلي حول بيت الحزن أغنية تجلو عن النفس أحزان الأحيين فإن قلبي قبر مظلم قبرت فيه الأمانى فما عادت تناغيني لولاك في هذه الدنيا لما لمست أوتار روعي أصوات الأفانين ولا تغنيت مأخوذاً ولا عذبت لي الحياة لدى غض الرياحين ولا أصحيت إلى الأصداء راقصة بين الكهوف على عزف الشياطين ولا ازدهى النفس في أشجانها شفق يلوون الغيم لهواً أي تلوين! ولا استخف حياتي، وهي هائمة، فجر الهوى في جفون الخرد العين.

● ١٩٢٨/٣/٧

أعشاب الربيع باحثة عن رحيق الورود، وأيقظ في أعماقكم ذلك الإحساس المبهم المبهج اللذيذ؟ أي شيء يا ترى هذه القوة الساحرة التي تسكر كل شيء وتعبث بكل شيء؟

(٣) يوميات

من مذكرات الشابي

- ها أنا أنظر إلى غيابات الماضي، وأحرق بظلمات الأبد الغامض الرهيب.
- ها أنا أنظر، فأرى صوراً كثيرة تعاقبت على نفسي كغيوم الربيع، وتحركت حوالتي كأنسام الصباح، وتعانقت حول قلبي كأوراد الجبل... ثم أنظر، فإذا رسوم غامضة مضطربة متقلبة كأموج البحار، وأطياف ملونة كقوس قزح، جميلة كقلب الربيع، تمر أمامي ثم تختفي، وتتراقص حوالتي ثم تبتعد، ثم تتوارى في أعماق الظلام الدامسة. وأرى أحلاماً صغيرة ناشئة تغرد كطيور الغابات، وتتمو نمو الأعشاب، وتفتح الورود، ثم تجف وتذبل وتتأثر فتذروها الرياح، ثم تضمحل وتتلاشى في سكون المنون.

- ها أنا أنظر، فإذا أصحابي المتوفون يعودون إلى الحياة ثانية، كأجل وأجل ما عرفتهم أول مرة. وإذا بنفسي تمثل معهم فضول الحياة الغابرة التي مثلناها بالأمس وطوتها الدهور، وتنسى متاعب العيش وأحزان الحياة، وتحسب أنها ما زالت تلك النفس التي عرفتها بالأمس مضحكة فرحة كقبرة الحقول، وتنسى أنها قد أصبحت غريبة بين أشباح لا يفهمونها، وحيدة بين أنصاب جامدة تحركهم بواعث المادة وشهوات الجسد، بعيدة جداً عن ذلك الملام السعيد الذي عرفته في عهدها الماضي، والذي ضربت بينها وبينه صروف الحياة، فاندفع في سبيل الخلود، فظلت هاهنا وحدها تنديهم

تطور هذا النوع مع الزمان فكان منه هذا النوع الذي نعرفه، والذي ألفت فيه كتب البلاغة على اختلافها. قلت هذا من قبل، ولكنني أردت أن أقول الآن إنني أسمي هذا القسم الأول بـ"الخيال الفني" لأن فيه تنطبع النظرة الفنية التي يلقيها الإنسان على هذا العالم الكبير، واسميه بـ"الخيال الشعري" لأنه يضرب بجذوره إلى أبعد غور في صميم الشعور. أما القسم الثاني فإنني أسميه "الخيال الصناعي" لأنه ضرب من الصناعات اللفظية، وأسميه "الخيال المجازي" لأنه مجاز على كل حال، سواء قصد منه المجاز كما عندنا الآن أم لم يقصد منه كما عند الإنسان القديم. وبعد هذه الكلمة، فأني نوع من أنواع الخيال أريد أن أبحث عنه عند العرب؟ فللخيال نواح كثيرة. هل إنني سأبحث عن الخيال الفني أم عن الخيال الصناعي؟ وهل إنني سأعرض له من وجهته الصناعية البحتة، التي تتناول المجاز والاستعارة والتشبيه ومبلغ قوة العرب في هذا الضرب من الكلام، أم إنني سأبحث في المجاز والاستعارة والتشبيه، من ناحية أخرى، هي تطور هاته التمجيزات مع العصور، واتباعها سنة النشوء، والتدرج من حسن إلى أحسن، ومن صالح إلى أصلح، وأثر الشعراء والكتاب في تطور هذه المجازات ورقبها واصطباغها بألوان العصور المختلفة التي ارتقت معها في سلم الحياة، أم ماذا؟

أما أحسستم إذ ذاك، وأنتم بين أحضان الطبيعة، بذلك الشعور القوي الغامض الثمل يستحوذ على مشاعركم ويستولي على نفوسكم فيجعلها أدنى إلى الخلود منها إلى هذا العالم الفاني؟ ستقولون: بلى!

ولكن، أي شيء هو هذا الذي حرك في نفس البلبل حب النشيد فانطلق يغني بين الغصون المزهرة، وداعب قلب القبرة الصغيرة فاندفعت تغرد راقصة بين الحقول، وأثار الفراش فرفر بين الشقيق والأقحوان، وأهاج النحلة فانطلقت تدمدم فوق

وترثيهم.

- أشعر الآن أنني غريب في هذا الوجود، وأنتي ما أزداد يوماً في هذا العالم إلا وأزداد غربة بين أبناء الحياة، وشعوراً بمعاني هاته الغربة الأليمة.
- «إن لك من معارف أبيك، وسمعته الحسنة، وصيته البعيد، وشهرة اسمك، ضماناً لاسترجاع منصب أبيك إليك لو تسعى...».

هاته هي الكلمة التي كثيراً ما أسمعها من أقاربي وأنسبائي ومن يمتنون إليّ من الصداقة بسبب متين. يقولون ذلك دائماً بلهجة من يغبطني على مثل هاته الأمور وتجمّعها لديّ، ويعنفني في شيء من العنف على تضييعي لمثل هاته الأسباب التي لو وجدها غيري لصعد منها بسلم إلى سماء المناصب، كأنهم يحسبون أن المناصب هي كل شيء في هذا العالم، وأنّ منصب القضاء هو سيدها. ولو علموا ما الذي يبغض إليّ المناصب على اختلافها، ويبغض إليّ المناصب الشرعيّة بالأخص، لعذروني.

- إنني شاعر. وللشاعر مذاهب في الحياة تخالف -قليلاً أو كثيراً- مذاهب الناس فيها. وفي نفسي شيء من الشذوذ والغرابة، أحسّ أنا به حين أكون بين الناس، يجعلني أتبع سنناً ورسوماً تحببها نفسي وربّها لا يحببها الناس، وأفعل أفعالاً قد لا يراها الناس شيئاً محبوباً، وألبس ألبسة ربّها يعدها

الناس شاذة عن مألوفاتهم.

أنا شاعر. والشاعر عبد نفسه، وعبد ما توحى إليه الحياة، لا ما يوحى إليه البشر.
وفي المناصب الشرعية بالأخص قيود، وطقوس، وسنن متعارفة، اصطلاح عليها الناس، وألفوها، فأصبحت مقدّسة عندهم لا يمكن أن تمسّ بسوء. وأنا أعلم أن نفسي تأبأها وتكرها ولا تخضع إليها.

أنا شاعر. والشاعر يجب أن يكون حرّاً، كالطائر في الغاب، والزهرة في الحقل، والموجة في البحار. وفي المناصب -والشرعيّة بالأخص- خنق لروح النفس، وقضاء على أغاني القلب، وإجهاز على راحة الضمير.

كيف يمكن لشاعر يحب أن يحسّ بالحياة إحساساً كاملاً، وأن يتحدث إلى الناس بأصوات قلبه الكثيرة، أن يسكن إلى حياة "الوظيف"؛ تلك الحياة الخاملة، الآسنة، التي تشابه غدران الفلاة، والتي تقضي على صاحبها أن يحيا كما يحبّ الناس لا كما يحبّ هو أن يعيش؟!

"إنك لو أردت أنت منصب أبيك، فإنّ لك من أصدقاء أبيك، وشهرته الطائرة، وخدماته الطاهرة، ومعارفك وصيتك، ما يحقّق لك هاته الأمنية في أسرع من لمح البصر".